مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد الثامن
1991 م.

معركة الزلّاقة وصداها في الشعر الأندلسيّ

الأستاذ محمد سعيد محمد
جامعة سبها

خلّد الشعر العربي المعارك الحربية التي تدور بين العرب وأعدائهم منذ الفتوحات الإسلامية بقصائد تعد من روائع الشعر الحربي، ومن هذه القصائد على سبيل المثال لا الحصر قصيدة أبي تمام في وصف معركة (يوم عمورية) وكذلك قصائد المتنبي، وأبي فراس الحمداني في التغني بانتصارات العرب على الروم تحت قيادة سيف الدولة الحمداني.

ولا يختلف الحال في الأندلس عما في المشرق، فقد كان الشعر استجابة للأحداث الهامة منددا بالانقسام، داعياً إلى توحيد الصفوف، وصد الأعداء منذ أن سقطت (بَربَشتر)[1] أول مدينة أندلسية في أيدي الإسبان (456 هـ - 1064 م).

(1) يمكن للقارىء أن يرجع إلى مقالتنا الموسومة بـ (نكبة بربشتر وصداها في الأدب الأندلسي) مجلة تراث الشعب الصادرة بالجماهيرية العدد 20-21 الفاتح 1986م.

وعندما انتصر العرب في الأندلس في معركة الزلاقة الشهيرة[2] (479 هـ ـ 1086 م) لم تحظ هذه المعركة بعناية المؤرخين فحسب؛ بل اهتمّ بها الشعراء كذلك، وخلّدوها في العديد من القصائد والمقطوعات، متتبعين أحداث الأندلس قبل الزلاقة ببضع سنوات.

فقد كان المعتمد بن عباد أمير أشبيلية في السنوات التي سبقت معركة الزّلاقة يدفع الإتاوات لألفونسو السادس نتيجة لضعف إمارته، وخوفه من غارات الفرنجة التي ربما تسبب له سقوط إمارة أشبيلية، وما يقع تحت سلطانها من مدن، ولا تجد من ينصرها أو يقف معها من إمارات الطوائف التي تعاني من التفرق، والتمزق، والإنقسام.

وقد وجد بعض الشعراء للمعتمد عذراً في دفع الإتاوات لألفونسو السادس قال الشاعر (حسان بن المصيصي) في ذلك:

ولم تطوِ دون المسلمين ذخيرة ... تهينُ كرام المنفسات لتكرما
تحيّلُ في فك الأسارى وإنما ... تعاقدُ كفّاراً لتطلق مسلما
وما كنت ممن شحّ بالمال والقنا ... فتكنز ديناراً وتركز لهذما
فترسله للصّفرِ أصفر عسجداً ... وإن خالفوا أرسلت أبيض مُخذما[3].

فواضح أن الشاعر يبارك عزيمة المعتمد، ويؤيده في سياسة المهادنة التي استعملها مع الفونسو لأن الدخول في معركة لا تكافؤ فيها يعدّ تهوّراً، وهذا التصرف في نظرنا يدل على العبقرية الحربية التي تميّز بها المعتمد بن عباد، حيث أنّه كان يؤجل الصدام المُسلّح مع الفونسو حتى يحين أوانه[4].

أما الشاعر أبو بكر الداني فإنه يرى أن المعتمد يمتاز ببعد نظره، وثاقب

---

(2) بطحاء الزلاقة من اقليم بطليوس من غرب الأندلس. انظر الحميري في كتابه الروض المعطار ـ تحقيق احسان عباس ص 287.

(3) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ تحقيق احسان عباس ق ح م ـ ص 248.

(4) وبخاصة إذا عرفنا أنّ المعتمد استنجد بيوسف بن تاشفين سنة (467 هـ ـ 1075 م) عندما شعر أن مدن الأندلس في طريقها إلى السقوط في أيدي الفرنجة.

بصيرته، فهو يدفع الإتاوات؛ وفي نفسه براكين من الغضب لم يئن الأوان لخروجها، وبخاصة إذا علمنا أن جيشه يقل عن جيش الفونسو عدداً وعدة، ودول الطوائف لن تقف معه لأنها منصرفة إلى أشياء هامشية مصيرها إلى زوال، فكان الشاعر يثق بحسن تصرف قائده فيقول في ذلك:

في نصرة الدين لا أُعد نصرته ... تلقى النصارى بما تلقى فينخدعُ
تنيلهم نعماً في طيها نقمٌ ... سيستضر بها من كان ينتفع
وقلّ ما تسلمُ الأجسامُ من عَرَض ... إذا توالى عليها الرّيُّ والشبعُ
لا يخبطُ الناسُ عشواً عند مشكلة ... فأنت أدرى بما تأتي وما تدعُ

غير أن النصارى لم يكتفوا بالإتاوات المتوالية التي كانت تدفع لهم من قبل أمراء الطوائف ولكنهم باتوا يطمعون في استرداد بعض المدن والحصون من أيديهم، فكثرت غاراتهم عليها، فقتلوا، وسبوا عدداً كبيراً من المسلمين، وسقطت في أيديهم مدينتا قُورية وسُرته وحصون غيرهما على درجة كبيرة من الحصانة والامتناع[5]. وبعدها سقطت طليطلة أكبر المعاقل الحصينة سنة 578 هـ ـ 1086 م وخروجها من أيدي المسلمين يعني بداية النهاية للوجود العربي في الأندلس، وذلك لأن طليطلة تعد من القلاع الهامة التي تصاقب مملكتي ليون وقشتالة المسيحيتين، وهي إحدى المعاقل الحصينة ذات الموقع الاستراتيجي فهي تقع وسط الأندلس وقبل سقوطها في أيدي المسلمين كانت تمثل عاصمة الإسبان.

وقد افصح (فرديناو) أحد القادة الإسبان عن النية الحقيقية لقومه عندما تحدث مع رُسل أهل طليطلة الذين طلبوا منه الصلح والتفاوض بشأن الإتاوات الباهظة التي فُرضت عليهم بقوله: (فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضى لكم وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم)[6].

---

(5) ابن بسّام الذخيرة ـ تحقيق احسان عباس ق ح م 1 ص 249.
(6) المصدر نفسه ص 249.

ويطالعنا شاعر من طليطلة ضاع اسمه من كتب التراث كما ضاعت طليطلة من أيدي العرب والمسلمين يستصرخ أمراء الطوائف لنجدة المدينة المنكوبة بقصيدة طويلة تبلغ اثنين وسبعين بيتاً يصور فيها حالة المدينة وما أصابها. ويبدو أنّ قائلها يوجهها للمعتمد بن عباد أقوى وأشجع أمراء الطوائف رغم أن الشاعر لم يصرح باسمه صراحة فيقول:

ألَا رجل له رأي أصيل ... به مما نحاذر نستجيرُ
يكرُّ إذا السيوفُ تناولته ... وأين بنا إذا ولّت كرورُ
ويطعن بالقنا الخطّار حتى ... يقولُ الرّمحُ ما هذا الخطير
... يبادرها خرقاً قبل اتساعٍ ... لخطب منه تنخسف البدور
.... يوسع للذي يلقاه صدراً ... فقد ضاقت بما تلقى صدورُ
... ونرجع أن يتيح الله نصراً ... عليهم إنّه نعم النصير[7]

فإن كان الشاعر قد صوّر المحنة، واستنجد بمن يتلافى الخطر، ويرأب الصدع قبل أن ينهار وحرّض على استرجاع المدينة ليقف مسلسل السقوط، فإن شاعراً آخر هو الفقيه الطليطلي ابن العسّال تشاءم بما حلّ بطليطلة، وكأنّما تكهن بنهاية الوجود العربي. فبدلاً من أن يحرض الناس على البقاء، وعدم ترك دورهم وديارهم، ومدينتهم ذات الظلال الوارفة كما أكد على ذلك الشاعر المجهول الاسم في قصيدته التي استشهدنا بجزء منها نراه يطلب من الناس الرحيل فيقول:

حثوا مطاياكم عن أرض أندلس ... فما المقامُ إلّا من الغلط
فالثوب ينسلُ من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط[8]

ولكن الشاعر الطليطلي الزاهد ابن العسّال فيما يبدو أنشد هذه الأبيات وهو يحسّ بالمرارة في الوقت نفسه يستصرخ الأمراء، ويناشد أهل الأندلس أن البقاء لن يكون إلا بتنظيم الصفوف والجهاد في سبيل الله، وإرجاع المدينة، وسوى ذلك يعني الرحيل.

---

(7) المقري ـ نفح الطيب ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج 6 ص 231-232.
(8) ابن بسّام ـ الذخيرة ـ تحقيق احسان عباس ص 250.

في ظل هذا الحادث الجلل ـ سقوط طليطلة ـ والصمت الذي قوبل به مِنْ قبل أمراء الطوائف وعدم تلبيتهم صرخات أهلها الذين يعانون الأمرين شعر المعتمد بن عباد بأن الخطر الداهم يزحف حثيثاً نحو بقية الممالك الأخرى، وأن أمراء الطوائف لن يخوضوا معه معركة فاصلة مع الفونسو السادس. لذلك لجأ إلى يوسف بن تاشفين يستنجده ويبين له حال الأندلس، وحال أمراء الطوائف فقال في رسالة بعث بها إليه: (أيد الله أمير المؤمنين، ونصر به الدين، إنّا نحن في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرّق جمعنا، وتغيرّت أنسابنا بقطع المادة عنّا من معيننا، فصرنا شعوباً لا قبائل.. وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أدفنش، وأناخ علينا بككلة، ووطئنا بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منّا طاقة على نصرة جاره، ولا أخيه، ولو شاؤوا لفعلوا)[9].

وطلب من ابن تاشفين أن يجوز البحر للحفاظ على شريعة الإسلام ونصرة دينه، وذكره بجزاء ثواب الجهاد.

وبعد هذه الرسالة عَبَرَ المعتمد بن عباد إلى العدوة للقاء يوسف بن تاشفين، وناشده الله أن يعبر إلى الأندلس لنجدتها وتخليصها من اعتداءات الفرنجة.

وقد أثار هذا العمل البطولي الرائع قرائح الشعراء فجادت بقصائد رائعة تصوّر ذلك العبور وتشيد بذلك العمل البطولي الذي سجله المعتمد بن عباد في صفحات التاريخ العربي الإسلامي بكل فخر في سبيل نصرة الإسلام والعروبة لم يركن فيه لنصائح الناصحين فقال قولته المشهورة: (حرز الجمال عندي خير من حرز الخنازير)[10].

ويطالعنا أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت 487 ـ 1094 م) بمقطوعة شعرية يمدح فيها المعتمد عندما عبر البحر للعدوة فقال:

يهون علينا مركب الفلك أن يرى محيّا العلا لما نبا مركب الجُردِ

(9) مؤلف مجهول ـ الحلل الموشية ـ تحقيق سهيل زكار وعبد القادر رزمامة ص 45-46.
(10) المصدر نفسه ص 45-46.

فجـزنـا أجـاج البحـر نبغي زلالـه وذقنـا جنى الشّريـان نبغي جنى الشهد
يـذكـرنـا ذاك الـعـبـاب اذا طـمـى ندى كفّك الهـامي على القرب والبعـد
مـحمـد يـا بـن الأكـرمـيـن أرومـة ليهنـك تشييـد الـمكـارم والـمجـد
فلو خُلّد الإنسـانُ بـالمجـد والتـقى وآلائـه الحسنى لـهُنِئـتَ بـالخـلد[11]

ويبدو أن الشاعر كان من ضمن الذين عبروا مع المعتمد، ويرى أنّ كل شيء يهون لأن الرحلة تسعى إلى هدف سام ونبيل هو استدعاء جيوش مسلمة للحرب مع جيوش مسلمة يحاصرها الفرنجة، ويشيد الشاعر بالمعتمد، ويذكره البحر بعطاء قائده الذي ينتمي إلى نسب كريم ويثمن مسعاه الذي يهدف إلى تشييد المكارم والأمجاد والدفاع عن الإسلام ليوضع في سماء الخالدين.

وقد وصف اسطول المعتمد وهو يعبر البحر إلى العدوة أيضاً شاعره عبد الجليل بن هبون، فقال في ذلك شعراً كثيراً فيما يبدو، ولكن ما وصلنا منه قصيدتان الأولى مطلعها:

يا حسنهُ يوماً شهِدت زفافها نبت الفضاء إلى الخليج الأزرق[12]

وهذه القصيدة تتكون من تسعة أبيات يصور فيها الشاعر العبور ويصف الأسطول بمراكبه الزاحفة بقيادة الفرسان الشجعان الذين يشبهون الأسود في جرأتهم وإقدامهم.

أما القصيدة الثانية فهي رائية تتكون من أربعة وعشرين بيتاً، وتفوق الأولى في جودتها وحرارة عاطفتها مطلعها:

عـزمٌ تَجـرَّد فيـه النصـرُ والـظفـرُ وفكـرةٌ خمـدت من تحتهـا الفكـرُ[13]

وبعد هذا المطلع ينتقل الشاعر لمديح المعتمد بن عباد الذي جاز البحر فيقول:

ركبتَ في الله حتَّى البحـر حَين طمـا آذيُّـهُ، وبسـوطِ الـريـحِ ينـحصـرُ

(11) ابن بسّام ـ الذخيرة ق حم 1 ص 238.
(12) المصدر نفسه ص 505-506.
(13) المصدر نفسه ص 503.

كـأنمـا النهـرُ لمَّـا سـرت سـار إلى ذاك المجـاز فـأجـرى فُلكَـكَ النهـرُ
كـأنمـا قمت بـالجـدوى تسـاجله فـنـالـه دهشٌ أو نـابـه حـصـرُ
لـم تثـن عنـك يـداً أرجـاءُ ضـفتـهِ ألاّ ومـدّت يـداً أرجـاؤه الأُخـر

فالمعتمد ركب البحر وخاطر بنفسه بعزيمة صلبة جعلته يستهين بما يصادفه فالشاعر هنا يهول الخطر الذي يلاقيه المعتمد حين يبين للناس مشقة هذا العمل.

وانتقل الشاعر بعد وصف الأسطول إلى وصف فرس المعتمد ومدح شجاعة راكبه فقال:

طِـرْف يـزلُّ عليـه سـرجُ فـارسـهِ ولـيس ممّـا تـضمُّ الـحُـزْمُ والـعُـذَرُ
كـأنّ راكـبـه فـي مـتـن ذي لـبـدٍ غضبـان تقـدحُ من أنفـاسـه الشّـررُ
حـملت نـفسـك فيـه فـوق داهيـةٍ دهـيـاء لا ملجـأ مـنـهـا ولا وزر
عُـذِرت لـو أنـه مـيـدان معـركـةٍ يسمـو لـه رَهَـجٌ في الجـوّ منتشـرُ
في حيث للكـرّ والاقـدام مضـطرب وحيثُ تـملكُ مـا تـأتي ومـا تـذرُ

وهذا الانتقال من وصف الأسطول إلى وصف الفرس ليس جديداً على الشعر في بيئة الأندلس، ولم يكن ابن عبد الصمد هو السابق إليه بل نجده عند شاعر أندلسي سابق هو ابن درّاج القسطلي (ت 420 هـ) يصف اسطول المنصور بن أبي عامر فيذكر الخيل هو الآخر في قصيدة مطلعها:

لـك الله والنصـر العـزيـز كـفيـلُ أجـدّ مُـقـامٌ أم أجـدّ رحـيـل[14]

وفيما يبدو أنّ للشاعرين ما يبرر ذلك فمن المعروف أنّ أكثر المعارك التي يخوضها الأمراء في الأندلس تكون برّية، ومن ثم يسيطر عليهم التصوير للمعارك البرية.

وفي الأبيات الأخيرة من القصيدة يبين الشاعر حب أهل حمص (اشبيلية) للمعتمد ويصور مدى قلقهم على حياته فقد أرقهم السهر في انتظار أميرهم، يتضرعون إلى الله أن لا يصاب بمكروه فقال:

---

(14) ابن دراج ـ ديوان ابن دراج القسطلي ـ تحقيق محمود علي مكي ص 3.

هـلّا رحمتَ نفـوسـاً حـام حمـائمهـا عليـكَ واستـولت الأشـواق والـذكـرُ
وعـاد أجبنـهـا من كـان أشـجعـهـا شحّـاً عليـك وأحيـا ليـلهُ السّـهـرُ
إنّـا لفي حِمْصَ نستقري محاضـرهـا ولـلقـلوب بـذاك الـلجّ مـحـتـضـرُ
لا نحسب الـظنّ إشفـاقـاً وقـد ضمنت لنـا مساعيـك أن يعنـو لـك القـدرُ[15]

وقبل أن يخوض الجيش العربي الإسلامي معـركة الـزلّاقة تكهّن أبـو بكر بن يحيى الخولاني المنجم بأن المعركة القادمة ستكـون في صالـح القوات الأنـدلسية والمرابطية، فأحسّ المعتمد بنشوة البشرى، وتهلل وجهه، وطافت بخياله غزوة بدر الكبرى التي انتصر فيها القلة المؤمنة في معسكر التوحيـد، على الكثرة الكـافرة في معسكر الشرك فأنشد مستبشراً:

لا بـد مـن فـرج قـريـب يـأتيـك بـالعجب الـعجيـب
غـزو عـليـك مـبـاركٌ فـي طيّـه الـفـتـحُ الـقـريـب
لـله سـيـفـك إنّـه سُـخط عـلى ديـن الـصـليـب
لا بـد مـن يـوم يـكـو ن لـه أخٌ يـوم الـقـليـب[16]

وبعد أن تم الانتصار الرائع على الفونسو في معركة الـزلاقة الشهيـرة (479 هـ ـ 1087م) يـطالعنـا العـديـد من الشعـراء الـذين خلّدوا ذلـك اليـوم المشهـود (يـوم العروبة)[17]، وتركوا لنا أشعاراً تكثر أحياناً وتقل في أحايين أخرى.

* * *

ومن أكثر الشعراء الذين تغنوا بانتصار الزلاقة الكبيـر الذي أحـرزته الجيـوش الأندلسية والمرابطيـة ممن وصلتنا أشعـارهم ابن حمديس الصقلي الـذي استقر في اشبيلية بعد أن غادر مسقط رأسه سرقوسة بصقلية عندما وقعت تحت حكم النورمان وشعر بالاستقرار النفسي، والراحة الجسديـة في ظل امـارة المعتمد بن عبـاد الذي

---

(15) ابن بسّام ـ الذخيرة ق ح م 1 ص 504.

(16) ديوان المعتمد بن عباد ـ تحقيق رضا السويسي ص 127.

(17) يوم العروبة هو يوم الجمعة في الجاهلية، وسمي يـوم الزلاقـة بيوم العـروبة لأن المعـركة كـانت يوم الجمعة. انظر المعجم الوسيط ج 2 الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص 597.

يمثل رمزاً للإنسان العربي في كرمه وشجاعته ونبله وعطائه.

وعندما انتصرت القوات الأندلسية بقيادة المعتمد بن عباد، والقوات المرابطية بقيادة يوسف بن تاشفين على القوات المسيحية المتحالفة وصلت الأنباء إلى المدن الأندلسية فتهللت الوجوه لهذه البشرى السعيدة، وتضوع شذا هذا الانتصار في ربوع الأندلس، وعطّرت نفحاته أنفاس ابن حمديس الذي تجرّع مرارة الهزيمة بسقوط وطنه صقلية، وكأنّ ذلك الانتصار أيقظ فيه ما قتلته الهزيمة السابقة، فصوّر انتصار الزلاقة ببضع قصائد.

ومن هذه القصائد دالية تتكون من أربعة عشر بيتاً يهنىء فيها المعتمد بما فتح الله عليه وقد افتتح الشاعر قصيدته ببيت يبين فيه أنّ قلوب أهل الأندلس قد اطمأنت، وخلت من الفزع الذي كان يلازمها، واستراحت من جانب العدو الذي كان يتربص بها الدوائر وكان هذا الانتصار عزّة لدين محمد ﷺ فقال:

الآن أفرخ روع كلّ مهيّد وأعزّ دين محمدٍ بمحمدِ[18]

ويذكر الشاعر بعد ذلك أن المعتمد كان من سلالة لها باع في ميادين القتال، وقيادة الجيوش فقد قاد والده جيشاً اشبيلياً كان له دور في اعادة مدينة برشتر لحظيرة المسلمين (457 هـ - 1056 م) ثم انتقل الشاعر يصور كثافة الجيش العربي المسلم الذي ملأ الدنيا بجلبته وغباره الكثيف وهو يلتحم مع الفونسو فقال:

في جحفل يعلو عليه قتامه كبخار أخفير بالعواصف مزبدِ
صُدمت جفون الفنش منه بمفعم بالأسد في غيل القنا المتأودِ

وصور بعد ذلك القوات النصرانية وهي تواجه مصيرها المحتوم المتمثل في الهزيمة النكراء على أيدي السواعد الأندلسية والمرابطية فقال:

وكأنما احتطب العلوج وسامهم بحريق ضربٍ بالصوارم موقدِ
صدعت كتائبه الظبا حتى إذا همّت به أعطى قذال مُعرِّدِ

(18) أفرخ روعه: خلا قلبه من الفزع. مهيّد: مضطرب انظر القصيدة في ديوان ابن حمديس: تحقيق د. احسان عباس ص 172-173.

أما قائدهم الفونسو فقد تستر بالظلام، وغادر ميدان المعركة وفرّت معه قلّة قليلة من فلول جيشه المهزوم وهي التي سلمت من سيوف المقاتلين، فقال الشاعر يصوّر موقفهم هذا:

في ليلةٍ لبست لتستر شخصه ... عنّا فلم تلحظْه عين الفرقدِ
يعدو الجواد به على فرسانه ... صرعى كأنهم نشاوى مُرقد
من كل ذي سكرين من خمر ومن ... حدٍّ لذي فتكٍ عليه مُعربدِ

ويصور لنا الشاعر كيف تم بناء الصوامع من رؤوسهم، ورفع المسلمون الأذان من فوقها فقال:

تبنى الصوامع من رؤوسهم بما ... كانت على هدم الصوامع تفتدي

وقد جسّد ابن حمديس انتصار الزلّاقة في قصيدة أخرى يصل عدد أبياتها إلى اثنين وأربعين بيتاً يمدح فيها المعتمد عند عودته إلى اشبيلية بعد الانتصار مصوراً ضراوة المعركة وبسالة الجيوش الأندلسية والمرابطية مطلعها:

ليهنىء بني الإسلام أن أبت سالماً ... وغادرت أنف الكفرِ بالذُّلّ راغماً[19]

ثم انتقل الشاعر بعد هذا المطلع إلى مدح المعتمد الذي أيده الله بنصرٍ فرّج به كروب المسلمين مدافعاً عن دينه ملبياً نداء ربه للجهاد في سبيله ومعه الفرسان البواسل، والخيول القوية التي يرتفع صهيلها عالياً فأظهر بسالة فائقة حتى أثخنته الجراح، وتركت علامات في جبينه تاجاً يجسد بطولته وشجاعته فقال:

كشفت كروباً عن قلوب كأنما ... وضعت عليها من هواك خواتما
صبرت لمرِّ الطعن والضرب ذائداً ... عن الدين واستصغرت فيه العظائما
تفسحت في صدر رحيبٍ بحيث لا ... يلاقيك فيه القرنُ إلّا مصادما
وكم شجةٍ في حرّ وجهك لم يزل ... لك الحسن فيها بالشجاعة واسما

ثم صوّر الجيش العربي الإسلامي وما يتمتع به من صلابة وقوة في ميدان الوغى فقال:

---

(19) القصيدة في ديوان ابن حمديس الصفحات من 425 إلى 428.

بنـو الحـرب غـذَّتْهم لبـان ثُـديّهـا ولم يستـطيبـوا منـه إلّا العـلاقمـا
يحثـون للهيـجـاء جُـرداً سـلاهبـا وينضـون في البيـداء بُـزلاً صـلادمـا
إذا طـعنـوا بـالـسمـهـريـة خِلتـهم ضـراغم تغـري بـالـقلوب أراقـمـا
وإن كـرّ مـنـهـم ذو لـثـام مُـصـمّـمُ غـدا لفم الهيجـاء بـالسيف لائـمـا

وبعـد وصف الشاعـر ضراوة المعـركة على الأعـاجم الذين بـدأت رؤوسهم تتـطاير فخـارت عزائمهم وانهـزموا، وتقهقـروا، وفرّت البقيـة الباقيـة منهم منهزمـة قال:

ولمّـا التقى الجمعـان طـارت قلوبهم كـأن لم تكن أوكـارهن الـحيـازمـا
كـأنـك حـرّمـت الحيـاة عـليـهـم غـداة الـوغى لمّـا استحلّوا المحـارمـا
فـلم تبـقَ من أهـل الـضـلال بقـيـةٌ لقـد عـادت الأعـراس فيهم مـآتمـا

وختم الشاعر القصيدة بثلاثة أبيات تـدل على المحبة الكبيـرة التي يكنها ابن حمديس للمعتمد ابن عباد في قرارة نفسه، وهذا الشاعر نذر نذراً ان رجـع المعتمد من حرب الزلاقة سالماً سيتصدَّق وعندما تم الانتصار، ولم يجد ما يتصدق بـه سجد لله سبحانه وتعالى وصام له شكراً على هذه النعمة العظيمة، نعمة الانتصار فقال:

سكنـتم قـلوب العـارفـين مـحبـة كمـا سكن الزّهـرُ الذكيُّ الكمـائما
نـذرتُ نذوراً فـاقتضـاني قضـاءهـا إيـابُـك من يـومِ العـروبـة سـالمـاً
ولمـا وجـدت الـوفـرَ أعـوز راحتي سجـدت لربي ثم أصبحت صـائماً

فالقصيدة جاءت صادقة العاطفة بسبب الانتصار الـذي طالمـا انتظره الشـاعر وتمناه واشعل في نفسه بصيصاً لانتصار آخر في سرقوسة مسقط رأسه، فـالشاعـر لا زال يعـاني مرارة الأسى على قـومه في صقليـة الذين اجتـاحهم النورمـان وسلبوهم جزءاً من أرضهم، وهذا الانتصار تفاعل معه الشاعر وعدّه انتصاراً لـلإسلام وصـوره في أكثـر من قصيدة. كـذلك يتضـح في هذه القصيـدة استعمال الشـاعر لـلألفـاظ الجزلة التي أعطت النص قرعاً قوياً، ويذكرنا الشاعر ببعض شعـراء المشرق الـذين استعملوا الألفـاظ الجزلـة في أشعارهم نـذكر منهم الشـريف الـرضي وأبـا الـطيب المتنبي وغيرهما. وفيما يبدو ان ما دعا الشاعر إلى تلك الألفـاظ أنه يـريد أن يؤكـد

انتماءه العربي، وصلته بثقافته المشرقية، وفي الوقت نفسه يريد أن يبين عبقريته الشعرية وأنه لا يقل شاعرية عن فحول شعراء المشرق.

وله قصيدة ميمية تتكون من سبعة وأربعين بيتاً في مدح المعتمد وذكر يوم الزلاقة، ولكنها أقل جودة من قصيدتيه السابقتين إلا في أبيات قليلة يمدح فيها المعتمد بن عباد، ويوسف بن تاشفين مبيناً لقاء الزلاقة، وفرار الفونسو تحت الظلام فقال:

وأحرم في يمينك مشرفيّ ... أدمت ببذله صونَ الحريمِ
ومعترك تلقّى الفنشُ فيه ... غريماً مهلكاً نفس الغريم
تستر بالظلام وفرّ خوفاً ... بروع شقّ سامَعَتي ظليم
وذاق بيوسفٍ ذي البأس بؤساً ... فمرّر عنده حلو النعيم
ولمّا أن أتاك بقوم عادٍ ... أتيت بصرصرِ الريح العقيم
وقد ضرَّمْتَ نار الحرب حتى ... حكت زفراتها قِطع الجحيمِ
وثار بركضٍ شُزَّبها قتام ... خلعن به الصريم على الصريمِ
فثوبُ الجوِّ مغبرّ الحواشي ... ووجه الأرض محمر الأديم[20]

واستمرت ذكرى يوم الزلاقة في مدائح ابن حمديس بعد المعركة ببضع سنوات، وبالتحديد عند حصار المعتمد لحصن لبيط. ففي هذه القصيدة التي قالها بالمناسبة والتي يصل عدد أبياتها إلى أربعين بيتاً نراه في جزء منها يصف (يوم العروبة) وما لاقاه الفونسو من هزيمة على أيدي القوات الأندلسية والمرابطية فيقول:

يوم العروبة والعراب لواعب ... تكبو على هام العلوم وتعثرُ
والفنش يحصب ناظريه وقلتهُ ... بقوارع الأحزان يومٌ مُعور
ركب الغواية واستبدّ برأيه ... جهلاً ليعبرَ خضرماً لا يعبرُ

وقال يمدح المعتمد بهذا الانتصار الرائع، ويعرّض ـ فيما يبدو ـ بملوك الطوائف الذين انصرفوا وراء نزواتهم وشهواتهم، وبدلاً من أن يعاشروا السيوف

(20) ابن حمديس ـ ديوان ابن حمديس ص 237-238.

والرماح كما يعاشرها المعتمد عاشروا آلات الغناء والدنان فيقول:

جـاهـدت في الـرحمن حق جهـاده وجرى الملوك كما جـريت فقصّـروا
فـيـبـيـتُ نـاجـودٌ وعـودٌ حـولـهـم ويـبـيـتُ حـولـك شـزّبٌ وسَـنَـوّرُ
وتـفـوح غـالـيـةٌ بـهـم وذريـرةٌ وهمـا دمٌ في بـردتـيـك وَعِثْـيـرُ[21]

* * *

ومن شعـراء البـلاط العبّـادي الـذين خلّدوا انتصـار الـزلاّقـة في أشعـارهم (عبد الجليل بن وهبون) فقد تابع هذا الشاعر أحداث الأندلس قبل معـركة الـزلاقة ببضع سنوات[22].

ويبدو أن له قصـائد لم تصـل إلينا، فـربما احتفظ بهـا، ولم تصل إلى أيـدي المؤلفين والدليل قوله: (عنـدما وصـل المعتمد بن عبـاد إلى اشبيلية بعـد الانتصار الكبير في الزلاقة وهنيء بالفتح وقرأت القرّاء، وقامت على رأسه الشعراء، وأنشدوه، حضرت ذلك اليوم، وأعددت قصيدة أنشده إيـاها فقـرأ القارىء: (إلاّ تنصـروه فقد نصـره الله)، فقلت بعداً لي ولشعـري، والله ما أبقت لي هـذه الآية معنى أحضـره اليوم وأقوم به[23].

وله من قصيدة لم يبق منها إلا سبعة أبيات، وتعد من القصائد الحربية يفخـر فيها بفضل العرب على الأعاجم في خوض غمرات القتال، يحث فيها المعتمـد بن عباد على الثبات والصبر والانتقام لكـل دينار أخـذوه جزيـة، وأن يخرج لهم بجيش يساوي عدد تلك الدنانير لا يرهب الموت فقال:

أتنكـر العُجمُ أنّ العُـربَ سـادتـهـا وتشهـد البيضُ والـخـطيّـة السُّـمـرُ
لمـا تعـارض دون الشكـر كـفـرُهم عـادت بـوادر فـيـهـم تـلكـمُ الـبـدرُ
وهـب عـن كـلّ ديـنـارٍ لـهـم بـطلٌ كخـالص التبـرِ مسـبـوكٌ ومختبـرُ

---

(21) المصدر نفسه ص 196-197.

(22) أي منذ أن عبر المعتمد إلى العدوة لاستدعاء ابن تاشفين.

(23) الحميري ـ الروض المعطار ص 292.

فليقبلوها ألوفا من أسود وغى تزكو على السَّبك لا جبن ولا خور[24]

ثم صور الشاعر شجاعة يوسف بن تاشفين، وشجاعة المعتمد بن عباد الفائقة، فكلاهما نبَّهَ إلى الخطر الداهم، وأيقظ القلوب من غفلتها وحذر من المحنة التي تمر بها الأندلس، وكان لهما الفضل في إعادة الثقة للناس فقال:

وليرقبوا من أمير المسلمين ومن مؤيد الدين ليلاً ماله سحرُ
لم يهشموا الثغرَ إذ عاثت أكفُّهُمُ لو يعقلون ولكن تلكمُ الثغرُ
وليس ما غيروا إلا بأنفسهم كأنما نبهوا إذ نامت العير[25]

وله قصيدة في يوم الزلاقة افتتحها بمديح يوسف بن تاشفين الذي لبى نداء المعتمد بن عباد، وأهل الأندلس مندفعاً بحمية دينية مطلعها:

فثار إلى الطعانِ حليفُ صدقٍ تثور به الحفيظةُ والذمامُ[26]

ثم انتقل إلى مدح الأميرين اللذين كان النصر على يديهما فالمعتمد راسل ابن تاشفين وعبر إليه البحر، وكانت له شجاعة نادرة وبسالة صوّرتها كتب التاريخ وخلّدها الشعراء في قصائدهم والثاني لبى النداء واشترك مع جيوش الأندلس في طرد التحالف الصليبي فقال:

نمى في حمير ونمتك لخمُ وتلك وشائجٌ فيها التمام
فيوسف يوسف إذ أنت منه كيامن، لا وهى لكما نظام
نهجْت لسبله نهجاً فوافي وفي آذيّه الطامي عرامُ
فهيلَ به كثيب الكفر هيلاً وكلَّ رفيفة منه ركام

ثم صوّر الشاعر بعد ذلك جيوش الكفر التي انتشرت جثثها على الأرض، وصارت كالتلال، وامتلأت الأرض المنخفضة بهم وجاءت الوحوش من كل حدب وصوب لتشبع جوعها من الجثث الصليبية الكثيرة فقال:

---

(24) ابن بسّام ـ الذخيرة ق ح م ص 255.
(25) المصدر نفسه 255.
(26) المصدر نفسه 245.

وصاروا فوق ظهر الأرض أرضاً كأنّ وهادها منهم أكامُ
تألقت الوحوشُ عليه شتى فما نقص الشرابُ ولا الطعامُ

ثم أردف الشاعر يصور فرار الفونسو، وموقفه أمام نساء بلاده عندما يسأل عن الرجال الذن ذهبوا معه للقتال ولم يعودوا فقال:

فأين العجبُ يا ادفونش هلاّ تجنبت المشيخةَ يا غلامُ
ستسألك النساءُ ولا رجالُ فتخبر ما وراءك يا عصام[27]

ثم خاطب الشاعر الفونسو في بقية أبيات القصيدة، وصوّر ضراوة المقاتل العربي المسلم المندفع للحياض عن دينه بحماس وشجاعة فكسبوا المعركة، وكان من نتاج ذلك اجتثاث رؤوس الأعداء ومن نجا منهم اكتتم بالظلام مثل الخفاش؛ وتمنى أن يكون الليل طويلاً حتى لا تلاحقه السيوف العربية فقال:

أقمت لدى الوغى سوقاً فخذها مناجزة وهون ما تسامُ
فإن شئت اللجين فثمَّ سامٌ وإن شئت النضارَ فثمّ حام
رأيت الضربَ تصليباً فصلِّب فأنت على صليبك لا تلام
أنام رجالك الأشقون؟ كلاّ وهل يحلو بلا رأس منامُ
رفعنا هامهم في كلّ جذع كما ارتفعت على الأيك الحمامُ
سيعبد بعدها الظلماء لمّا أتيح له بجانبها اكتتامُ
ولا ينفك كالخفاش يُغضي إذا لم يباشره الظلامُ
نضا أدراعه واجتاب ليلاً يودُّ لو ان طولَ الليل عامُ[28]

* * *

ومن الشعراء الذين خلّدوا يوم الزّلاقة في أشعارهم التي مدحوا بها المعتمد ابن عباد، أبو بحر يوسف بن عبد الصمد في قصيدة تبلغ أبياتها واحداً وعشرين بيتاً، افتتحها ببيت يصور فيه مكانة المعتمد بين الأمراء والملوك والأبطال فما من

(27) (ما وراءك يا عصامُ) يضرب مثلاً في الاستخبار، وخوطب به في الأصل حاجب النعمان. انظر المعجم الوسيط ج 2 ص 611.
(28) ابن بسام ـ الذخيرة ق ح م 1 ص 247.

أحد إلاّ وخضع له لما امتاز به من شجاعة نادرة فقال:

خضعت لعزّتك الملوك الصّيد وعنت لك الأبطالُ وهي أسودُ

ثم أشاد الشاعر برأي المعتمد الصائب عندما اختار الوقت المناسب للاستنجاد بالمرابطين وحرب الفرنجة، وذكر يوم الزّلاقة وما أبلاه المعتمد فيه مصوراً حالة الروم وما حل بهم من هزيمة نكراء فقال:

رأيُ يفلُّ الجيش وهو عرمرم ويعفر الجبّارَ وهو عنيدُ
هيهات لا يمضي لحقّك شاهدٌ يوم العروبة شاهدٌ مشهودُ
يوم تواصلت الترائب والقنا فيه وعانقت الأسود أسودُ
والخيل قد نكصت على أعقابها والرّوم زرعٌ والرؤوس حصيد
وكأنما كانت هناك كنائسٌ قد حان فيها للصليب سجودُ

والأبيات الخمسة الأخيرة انصبت على مديح المعتمد، وبيّن الشاعر ما يتميز به هذا الأمير من شجاعة نادرة حتى انه طلب منه أن يملك الأرض، ويرى أن ذلك عين الصواب لأن الله سبحانه وتعالى ارتضاه لذلك لشجاعته ومكانته فقال:

فاطعن ولو أن الثّريا ثغرةٌ وأضرب ولو أن السماك وريدُ
واطلب بملك الأرض حقّاً انه فرضٌ على بين السيوفِ وكيدُ
وطُلِ ابن عباد على أملاكها فقد ارتضاك الواحد المعبودُ
ان الرياسة والنفاسة والعلا حرمٌ تدافع دونها وتذودُ[29]

وعلى الرغم من أن الانتصار الكبير الذي حققه المعتمد بهر الشاعر كما بهر غيره لأنه أعاد للإنسان العربي كرامته وعِزّته فاننا نشعر في الأبيات السابقة بشيء من المبالغة وهو أمر مألوف في قصائد المديح.

* * *

وهناك من قلّت قصائدهم في معركة الزلاقة أو على الأقل وصلتنا من أشعارهم في هذه المعركة مقطوعات شعرية من أمثال أبي عبد الله بن عبادة القزاز الذي صور ما أصاب ابن عباد من جروح في يوم الزلاقة فقال قصيدة يصف فيها

الجرح ويبين بأس المعتمد وسماحته وشماء يده فقال:

وقـالـوا كـفـه جُـرحت فـقـلـنـا أعـاديـه تـواقـعـهـا الـجـراحُ
ومـا أثـر الـجـراحـة مـا رأيتم فتـرهبها المنـاصـلُ والـرمـاحُ
ولكن فـاض سيلُ البـأسِ منهـا ففـيـهـا من مـجـاريـه انسيـاحُ
وقـد صحّت وسـمّت بـالأمـاني وفـاض الجـود منهـا والسمـاحُ
رأى منـه أبـو يـعـقـوب فـيـهـا عُـقـابـا لا يـهـاضُ لـه جنـاحُ
فقـال لـه لـك القِـدحُ الـمعـلّى إذا ضُـربت لمشهـدك القـداحُ[29]

وممن ضاعت قصائدهم في يوم الزّلاقة، ولم يصلنا منها سوى بيت واحد (ابن جهور) أحد أدباء اشبيلية والبيت هو:

لم تعـرف العُجمُ إذ جـاءت مُصمِّمـة يـومَ العُـروبـة أن اليـومَ للعـرب[30]

* * *

وقد أثار انتصار الزلاقة الرائع حفيظة المعتمد بن عباد فتفجرت قريحته شعراً أنشده وهو في المعركة، إذ تذكر ابنه الصغير أبا هاشم، ولم يزده ذلك إلا اصراراً على مواصلة الجهاد رغم الجروح التي يعاني منها، ويبدو أن ما أنشده ضاع إذ لم يصلنا منه إلاّ بيتان هما:

أبـا هـاشـم هشّـمتـني الـشّـفـار فـلله صـبـرى لـذاك الأوار
ذكـرت شـخيـصـك مـا بيـنـهـا فـلم يـدعـني حبـه لـلفـرار[31]

ويبدو أن المعتمد يحب ابنه أبا هاشم حبّاً شديداً، وربما تركه مريضاً فكان قلقاً عليه وهو في المعركة، ولكن رغم ذلك ثبت أشد ما يكون الثبات، وقاتل ببسالة نادرة حتى تم الانتصار الرائع.

وله قصيدة أخرى تتكون من عشرين بيتاً يمدح فيها ابن تاشفين مباركاً جوازه

---

(29) ابن بسام ـ الذخيرة ق ح م 1 ص 245.
(30) المصدر نفسه ص 256.
(31) المعتمد ـ ديوان المعتمد بن عباد ـ تحقيق رضا حبيب السوسي ص 106.

البحر ملبياً نداء أهل الأندلس، نافراً للجهاد في سبيل الله، مؤمناً بالعهد الذي عاهدهم إياه، هذا العمل البطولي سرّ المعتمد أيما سرور، فاندفع يشيد بشجاعة ابن تاشفين يوم الزلاقة وثباته في المعركة وصبره على الشدائد، إذ لولا ذلك الموقف لتحوّلت الجزيرة دار كفر بعد أن كانت دار إيمان فقال:

ويوم العروبة ذدت العدى ... نصرت الهدى وأبيت الفرارا
تثبت هناك وأن القلو ... بَ بين الضلوع لتأبى الفرار
ولولاك يا يوسف المتقي ... رأينا الجزيرة للكفر دارا[32]

ثم صوّر المعتمد ضراوة القتال الذي تميز به ابن تاشفين وجيشه في المعركة وحركة السيوف والرماح فقال:

رأينا السيوف ضحى كالنجو ... م وكالليل ذاك الغُبارا المثارا
فلله درُّك في هوله! ... لقد زاد بأسك فيه اشتهارا
تزيد اجتراءً إذا ما الرما ... ح عند التناجز زدن اشتجارا[33]

ثم ختم القصيدة بأربعة أبيات يمدح فيها يوسف بن تاشفين على العمل البطولي الذي أبلاه في الزّلاقة، والذي سينال به ثواب الله مبيناً له ثناء الشهداء عليه واستبشارهم به أن يلحق بهم على طاعة الله ورسوله فقال:

ستلقى مفاعلك يوم الحساب ... تنثّرُ بالمسك منك انتثارا
ولشهداء ثناء عليك ... بحسن مقامك ذاك النهارا
وأنّهم بك يستبشرو ... ن ألّا تخاف وألا تضارا
وتلقى نعيماً ينسي الشقا ... وتُجْني سراحاً يُنسِي الاسارا[34]

وللمعتمد بن عباد أبيات يصوّر فيها شجاعته وتلبيته نداء الجهاد وفيما يبدو أنه قالها في يوم الزلاقة:

وكنّا إذا حانت لحرب فريضة ... ونادت بأوقات الصلاة طبولُ

(32) المصدر نفسه ص 159.
(33) المصدر نفسه ص 160.
(34) المصدر نفسه ص 160.

شهدنا فكبرنا فظلت سيوفنا تُصلي بهامات العدى فتطيلُ
سجود على أثر الركوع متابعٌ هناك بأرواح الكماة تسيلُ[35]

ويرد في الأذهان سؤال: لماذا انصبت المدائح على شخص المعتمد في القصائد التي مجد فيها أصحابها يوم الزلاقة؟ والاجابة تكمن فيما يبدو لنا في أن المعتمد بن عباد بعث في استدعاء يوسف بن تاشفين، وجمع قضاة بعض أمراء الطوائف ثم أرسلهم إلى العدوة إلى يوسف ليعظوه وليرغبوه في الجهاد، فضلاً عن أنه جسد روح العربي المسلم الذي استطاع بجهوده توحيد المسلمين لمواجهة القوات النصرانية المتحدة[36] ثم انه عندما التقى الجيشان في المعركة الفاصلة دارت الدائرة على المسلمين في البداية، وكانت القوات التي اشتبكت مع القوات المسيحية هي القوات الأندلسية التي اختلّ نظامها في أول المعركة، ولم يثبت سوى المعتمد بن عباد بفرسان اشبيلية حتى أثخنته الجراح، ولكنه ظلّ ثابتاً ثبات الجبال، إلى أن تقدمت لنجدتهم الجيوش المرابطية بقيادة سير ابن أبي بكر، أما قوات بطليوس وغرناطة والمريّة فقد تراجعت منهزمة صوب بطليوس، ولم تعد إلى الميدان إلاّ حين لاحت طلائع النصر[37].

وهكذا نرى أن المعتمد بن عباد يمثل للشعراء الذين مدحوه وأشادوا بانتصار الزلاقة الرمز في الكرم والشهامة وحماية الديار من الفرنجة ويصدق فيه قول الشاعر:

ومثلك عزّ قدرُك من مثيل يؤمّلُ أن يطولَ له البقاءُ[38]

---

(35) المصدر نفسه ص 179-180.

(36) عندما علم الفونسو بعبور المرابطين للأندلس واتحادهم مع بعض ملوك الطوائف بعث إليه سانشو راميرز ملك أراجون يستدعيه لانجاده. . وبعث كذلك إلى أمراء ما وراء البرنيه، وحشد إليه سبيلاً من الفرسان المتطوعة من قوات جليقية واستوريش، وبسكونية (نافار) وتقاطر إليه المقاتلون من جنوبي فرنسا وايطاليا، وسار على رأس القوات النصرانية المتحدة إلى الجنوب للقاء المسلمين، وانتصر المسلمون عليهم بفضل الاتحاد. انظر محمد عبد الله عنان ـ دول الطوائف ص 322.

(37) المصدر نفسه ص 322. وما بعدها.

(38) هذه الأبيات للوزير أبي العلاء بن زهر بن عبد الملك (ت 525 هـ) أنشدها يبين فيها ما يمثله المعتمد للشاعر وللأندلس انظر ابن بسام ـ الذخيرة ـ ق ح م 1 228.

لأنـك في سماءِ المجـد نـجـمٌ   بـه لـنـواظـر الـدنـيـا جـلاءُ
وغـايـةُ كـلٍّ شـيء لانـتـهـاء   وأنـت لغـايـةِ المجـد انتـهـاءُ

وفي الختـام تعد معـركة الـزلاقة (479 هـ ـ 1087 م) نقـطة تحول في تـاريخ العرب والمسلمين النضالي أخـرت سقوط الأنـدلس لبضعة قـرون شاد فيهـا العرب أعظم حضارة عرفتها البشرية في مسيرتها الطويلة.